خلع عبد الحميد

الاستانة قبل الهجوم عليها

قال المؤلف مرّ على الاستانة اثنا عشر يوماً من ١٣ ابريل الى ٢٤ منهُ وهي في قلق دائم فني الثالث عشر والرابع عشر اعتقد الناس ان عبد الحميد استردّ سلطتهُ وقضى على الجمعية وفي السادس عشر شاع ان سلانيك لم ترضَ بما فعل فاجتمع اهلها واعترضوا على ما حدث وارسلوا يتهددون الاستانة بالزحف عليها . وتسلحت ليل ذلك اليوم ومضيت لزيارة صديق لي من زعماء تركيا الفتاة فرأيت انهُ لا يعتقد بصحة ما شاع عن سلانيك بل قال ان الجند لم يفعل شيئاً وان الذين اجتمعوا كانوا من المتطوعين فلما جاءهم من الاستانة ان الدستور لم يمس بسوء انصرفوا الى بيوتهم . وتأيد ذلك بتلغراف جاء ذلك اليوم من سلانيك ونشرتهُ بكي غازت في الصباح التالي . وفيهِ يقال انهُ لدى وصول الاخبار من الاستانة ان الدستور في امان عاد الجنود الذين ساروا نحو الاستانة وتفرقت المتطوعة واستولت السكينة . وجاء تلغراف آخر يقال فيهِ انهُ لما وصل جنود سلانيك الى لوله بورغوس التقوا بجنود ادرنة فاقنعهم ايتها بالعودة الى سلانيك لان لا خوف على الدستور

ورسخ في الاذهان في السابع عشر من الشهر ان عبد الحميد نجح نجاحاً تاماً وان انقلاب يوليو الماضي لم يكن الاَّ خدعة (بلف) من الضباط المتفرنجين وانهُ ان كانت الجمعية قد رضخت لعبد الحميد كما هو ظاهر فقد قُطع الرجاء منها كما قطع من عبد الحميد

ونهضتُ في الثامن عشر من الشهر وهو يوم احدر صغيرَ النفس وكنت ارى السكان بين عاملي اليأس والرجاء والرأي الشائع ان فيلق ادرنه قد عق جنود سلانيك . وفي المساء رأيت الناس مقتنعين ان المخاوف زالت وسيعود الامن الى نصابهِ . ونشرت الجرائد منشور الاحزاب المتحدة وكلمة [illegible] وتكلم الصدر الاعظم في مجلس كبير فهزأ بالذين يخشون من نشوب حرب اهلية . ولكن جاءت في المساء اخبار اكيدة مفادها ان قطرين فيهما ٤٧ مركبة مملوءة بالضباط والجنود وصلا الى جاطلجه في السادس عشر من الشهر وهي على ٧٢ كيلو متراً من الاستانة وان قطرات اخرى آتية من ادرنة وسلانيك وان جنود الدستوريين تحتشد الآن في ضواحي العاصمة

وكان النواب الذين يحضرون مجلس المبعوثان قلائلَ جدًّا وكانت السيادة فيهِ لمراد بك

صاحب جريدة ميزان وهو يؤكد لكل احد ان الدستور في امان وانهُ يجب على كل الاحزاب في المجلس ان تتحد معًا . وجرى الاقتراع في السابع عشر من الشهر على رئيس للمجلس فلم ينل احمد رضا بك سوى صوتين . ونظر المجلس في الميزانية وتليت فيهِ تلغرافات كثيرة من سورية ولبنان يطلب اصحابها بها ان ترسل حملة الامير محمد ارسلان الى اهلهِ وفيها من كلام التهديد والوعيد ما اقلق راحة المبعوثان[1] . ثم دخل خادم بتلغراف من الصدر الاعظم يقال فيهِ ان جنود سلانيك وصلت الى جاناقلجه وان مجلس الوزراء ارسل اليهم رشيد باشا وان رشيد باشا ابرق اليهِ يقول التقيت بجنود سلانيك واقنعتهم ليتوقفوا عن الزحف هنيهة فرضوا لكنهم قالوا لي انكم اذا غدرتم توقفنا هذا بغير حقيقتهِ او اذا اغتنم الفرصة للمقاومة فنحن نزحف على الاستانة حالاً ولقمع مسؤولية كل ما يحدث على مجلس الوزراء

فلما سمع المبعوثان هذا التلغراف تركوا البحث في الميزانية ونادى يوسف كمال بالويل والثبور فقال ان بوارج الدول تتهددنا واذا نشبت الحرب الاهلية في البلاد قضي علينا فهلموا بنا نذهب لمقابلة جنود سلانيك واقناعها بالعدول عمَّا تقصد . فوافق الاعضاء على هذا الرأي وحضر حينئذٍ اثنان من مجلس الوزراء فعين المجلس وفدًا مؤلفًا من ثلاثين مبعوثًا لهذه الغاية . وبقيت تلغرافات التهديد والوعيد ترد على المجلس من كل انحاء السلطنة فاقترح اسمعيل كمال بك ان ترسل كل ولاية مندوبين الى الاستانة ليروا ان مجلس المبعوثان لا يزال جاريًا في اعمالهِ كما كان فقال لهُ جمهور من الاعضاء كيف نقول ذلك وليس في المجلس نصف اعضائهِ

واجتمع المجلس في اليوم التالي واول شيء فعلهُ ان قرأ تلغرافًا واردًا من يانيا بتوقيع جمعية الاتحاد والترقي والوالي وقومندان الجند والنائب ومترو بوليت اليونان وحاخام اليهود ورئيس المجلس المحلي وهم يتوعدون بالزحف على الاستانة ان لم يحل مجلس الوزراء حالاً ويعاد المجلس الاول . ووردت تلغرافات مثل هذا الى كثيرين من المبعوثان وظهر كأن البلاد كلها عزمت ان تزحف على الاستانة وتقوض دعائم السلطنة . وان كل القواد المجربين ذهبوا الى سلانيك بلا انقطاع الى الجيش والزحف على الاستانة بل ظهر كأن الاستانة نفسها عزمت ان تخرج الى الجيش وتشاركهُ في الزحف فان الجنود كانت تهرب منها يوميًا وتذهب اليهِ

(١) وهنا ذكر المؤلف كلامًا طويلاً عن الدروز والتسمير ولا محل لهُ من الصحة وعسى ان لا يكون واهمًا في سائر ما كتبهُ كما وهم في هذا الموضوع

وقلق عبد الحميد من جراء ذلك فجعل يترضى الوزراء وامر بثلاث بدل جديدة لكل من تلامذة المدرسة الحربية والمدرسة الطبية . وانقلبت جرائد الاستانة وجعلت تحث على التنازل عن عرش آل عثمان مع انها كانت بالامس معهُ قلباً وقالباً . اما هو فلم يعبأ بذلك بل حاول هو ووزراؤهُ الاعضاء عمَّا يقال والاحتفاء بالجنود القادمة كأنهم ضيوف يجب اكرامهم . لكن الخوف والقلق بلغا منهُ كل مبلغ واعتقد ان ساعتهُ دنت وجعل يدعو وزراءهُ ويستشيرهم ويطلب حمايتهم واستدعى الصدر الاعظم توفيق باشا ليلة ٢٩ ابريل الساعة ٢ بعد نصف الليل فلما حضر نسي الغرض الذي استدعاهُ لاجلهِ ولم ينم تلك الليلة وامر الحرس ان يمشوا الليل كلهُ تحت كوى الغرفة التي ينام فيها حتى يسمع صوت وقع اقدامهم ويطمئن بالهُ

وفي التاسع عشر من الشهر خطر لهُ ان يؤلف الوزارة من حزب الجمعية ويجعل حلمي باشا صدراً اعظم لكن حلمي باشا كان مختفياً لان عبد الحميد كان قد اغرى الجنود بقتلهِ ففتشوا عنهُ ولم يجدوهُ

ويوم الجمعة في ٢٣ ابريل صلَّى عبد الحميد واستقبل الاستقبال الاخير في السلاملك . قال المؤلف وصلت الى هناك باكراً وكان عدد الجنود قليلاً في اول الامر ثم زادوا رويداً رويداً وانبثَّ منهم بين الجمع اكثر ممن كنت ارى في المرات السابقة مخافة اغتيال السلطان . وكان هناك نحو ستة آلاف من الجنود مشاة البحرية والمدفعية وفرسان ارطغرل وجنود يلدز وفرقة من جنود سلانيك ولكنها من غير ضباط فبقوا للسلطان على جاري عادتهم . واقبل برهان الدين ابن السلطان ووقف بين البساط وهو بلباس اميرال والتفت الى حيث يقف رجال السفارات ولا بدَّ من انهُ فشل لما لم يرَ هناك احداً من السفراء . ثم جاء ادهم باشا وزير الحربية ووراءهُ جمهور من رجال الحرب الشيوخ والباشوات وسركات الحريم وبعد قليل صدحت الموسيقى وادى الجنود السلام العسكري برفع السلاح واقبل موكب عبد الحميد فهتف لهُ الجنود على جاري العادة فالتفت الى موقف السفراء وهو صاعد السلم الى الجامع كالتفت ابنهُ لكن لم تظهر على وجههِ امارات الصعد ولا ظهرت على وجه ابنهِ كان صدرهُ لم يكن يسع غير ما فيهِ . فسلم على الجمع يميناً ويساراً حسب عادتهِ . وكان توفيق باشا الصدر الاعظم جالساً امامهُ وهو شيخ خفيف اللحية شائبها وابنهُ عبد الرحمن جالساً الى جانبهِ وكان ابنهُ الاصغر واقفاً على اعلى سلم الجامع وهو في الرابعة او الخامسة من عمرهِ فصعد السلَّم متثاقلاً ولما عاد هتف لهُ الجند والجمع المحتشد

وظلت رسائل التهديد والوعيد ترد على عبد الحميد حتى اضطرَّ ان يستدعي اخصاءهُ

كلهم ليقيموا معهُ في يلدز ولكن فارقهُ ابنهُ برهان الدين الذي بذل جهدهُ في تغيير نظام الوراثة لكي يجعلهُ وليًّا لعهدهِ . وكان برهان الدين متَّهمًا بالاشتراك في فتنة ١٣ ابريل فكتب الى الجرائد التي تنشر في الاستانة يتنصل من هذه التهم ويهرب الى سراي اخته نائلة سلطانة . ثم هرب اكثر سكان البيوت في حي يلدز لانهم خافوا من أطلاق القنابل عليها ولم يبقَ لعبد الحميد باب امل يلجهُ الاَّ الاسطول العثماني لكن قومندانهُ رستم بك حالف المكدونيين وخرج بسفنهِ الى سان ستفانو بحجة التمرين ورسا بها هناك مخافة ان ينتقض البحارة عليهِ ويقتلوهُ . فامن المكدونيون شرهم وأقفل هذا الباب في وجه عبد الحميد لان السفن الحربية اخذت معها اليخت السلطاني الذي كان يحتمل ان يهرب بهِ . وتآخى البحارة في سان ستفانو مع الجنود المكدونية

هذا ما جرى في الاستانة اما ما جرى خوفًا في ذلك اليوم وليلتهِ فخلاصتهُ القضاء المبرم على سلطة عبد الحميد فان شوكت باشا وصل الى جاطلجه يوم الخميس في الثاني والعشرين من ابريل واستلم القيادة العامة وفي ذلك اليوم عينهِ احتلت مقدمة الجنود المكدونية كل الخط الممتد من سان ستفانو الى تاروس واجاس واغاجا ودنت من صارتاكولي وخادم كوي وكان جواسيس عبد الحميد قد انبثوا بين الجنود المكدونية وجواسيس المكدونيين قد انبثوا في الاستانة ولكنهم يحثون الجنود على التسليم فاقلع هؤلاء اكثر مما اقلع اولئك . وجعل الجنود الذين تمرَّدوا يتوسلون الى ضباطهم ليعفوا عنهم قائلين انهم أغروا على ما فعلوا اغراء لكن الخوجات انبثوا بينهم واقنعوهم بان الجنود التي حصرت الاستانة بلغارية كلها فلا يجوز ان يدعوها تمس عاصمة السلطنة . وقد وجد مع كل جندي جرح ونقل الى المستشفى اكثر من خمس ليرات عثمانية ومع كل صف ضابط خمس وعشرون ليرة . ولو تأخر شوكت باشا بضعة ايام لتعذر عليهِ اخذ العاصمة . ومما فعلهُ حينئذٍ انهُ ارسل تلغرافًا الى وزير الحربية وآخر الى سعيد باشا رئيس مجلس الاعيان يثني بهما على اتباع عنهُ وهو انهُ آتٍ خلع السلطان . ولما سألهُ المؤلف في ذلك قال نعم اني ارسلت هذين التلغرافين لان خلع السلطان ليس من شأني بل هو من شأن المجلس وشيخ الاسلام واذا اتيت لاعاقب مسببي الفتنة وارد الامن الى نصابهِ واسهل على مجلس المبعوثان القيام بما يطلب منهُ . وقد اقرَّ نواب الامة في ٢٧ الشهر على خلع عبد الحميد واما قبل ذلك فكان سلطاني الذي تجب عليَّ طاعتهُ في كل ما ينطبق على الدستور وعلى هذا المبدإ عملت ما عملت ولم اخاطب السلطان رأسًا بل كنت اخاطب وزارة الحربية لانها هي صاحبة الشأن . ولما احطت بيلدز لم يكن غرضي امر السلطان بل نزع السلاح

من الجنود الذين تمرّدوا ثم لما دخلنا الاستانة وقفنا خاضعين لاوامر نواب الامة

وكان مع شوكت باشا في ٢٣ ابريل ٢٢٨٨٤ من الجنود و٩٣٥ من الضباط و٣٣١٢ فرساً و٤٨ مدفعاً و٨ مدافع سريعة الطلقات وكان عدد الجنود الحاضرة في الاستانة ٢٩٠٠٠ فكانت اقوى من جنود شوكت باشا عدداً وعُدداً ولم يكن بعيداً ان يشتري جواسيسُ عبد الحميد رجالَ شوكت باشا حتى يحملوهُ ويأتوا بهِ الى عبد الحميد كما فعل رجال علي فيوزي بهِ في الاسبوع السابق . وعليهِ فتغلّب شوكت باشا على حامية الاستانة وكمن فيها من الجنود مع ما عندهم من الحصون والمدافع الكبيرة يشهد لهُ بانهُ من اعظم قواد العصر

وهنا وصف المؤلف المعارك التي حدثت ناقلاً ذلك عن تقارير بعض المتطوعين الثقات وذاكراً ما رآهُ مرأى العين كل مدة الحصار والحرب . ثم عاد الى عبد الحميد فقال انهُ لم يقف مكتوف اليدين كما يظهر لغير الباحث المحقق بل استخدم كل ما لديهِ من الوسائل لكي يدير الدائرة على شوكت باشا فارسل يوسف باشا الى بلاد الارناؤوط لكي يثير سكانها على خصومهِ ولكن شوكت باشا ارسل وراءهُ اثنين من رجالهِ يتعقبانهِ ولما قبض عليهِ وفتشت امتعتهُ وُجد فيها صندوق مملوء جواهر عليها اوراق تدلُّ على ان ما فيها ادوية فلمّا فتح وجدت مملوءة ليرات . ومثل ذلك حاول عبد الحميد التغلُّب على خصومهِ ولكنهُ لم يفلح بل دارت الدوائر عليهِ اخيراً كما سيجيء

اللورد لستر

وما افاد بهِ علم الطب

كتب السر وليم وطسن تشاين الجراح المشهور ترجمة اللورد لستر في مجلة نانتشر فقال

فقد العالم بموت لورد لستر رجلاً من اعظم رجاله رجلاً لا جدال في انهُ افاد نوع الانسان اكثر مما افادهُ اي رجل آخر قبلهُ . وعملهُ العصري هو الانقلاب الذي احدثهُ في الجراحة علماً وعملاً ببحثهِ عن اسباب الامراض العفنة . واقل نظرة الى حالة الجراحة حتى الوقت الذي اخذ يبحث فيهِ تقنع المرء بالتقدم العظيم الذي تقدمتهُ بعد بحثهِ

ان الخطر الناتج عن الجروح سواء حدثت عَرَضاً او كانت من عمليات جراحية شغل بال كل الذين عالجوها . ولقد بذلوا كل الوسائل لاجتنابهِ ولم تكن الغاية التي يسعى اليها